ثقافتنا القوميّة ... والأنموذج الأميركي

ابراهيم العجلوني

لم يَعُدْ مُحتملا الجدال في معنى الثقافة، أو التردد في فهمها بين ما وضُعت الكلمة له في أصل اللغة وما انتهت اليه لدى هؤلاء أو أولئك من الدارسين. ان في ذلك ترفاً يأباه هذا الواقع الشرس الذي نبلو مراراتِه. ويظل أقربَ من هذا رشداً أن نفهمَ نحنُ عربَ اليوم الثقافة على أنها أسلوب حياة شامل لا الجوانب المعرفية والعلمية منها فقط. فهي تضم الأخلاق والعقائد والأعراف والأنظمة والعلوم والمعارف في إهاب واحد، وتصبغها جميعها بصبغة واحدة. وليس يعدو الاعلامُ كونَه إخباراً عن جانب أو آخرَ من هذه الجوانب أو عنها كلّها مجتمعة، فهو مرآة تنعكس عليها أساليبُ حيوات الشعوب أو ثقافاتُها المتمايزة، وهو إمّا زائف أو حقيقي، ناجحٌ أو مخفق، في ضَوْءِ هذه المَهَمّة.

من هنا كان لا بُدَّ أن نرى في الاعلام وسيلة وفي الثقافة غاية، وأن نرى ذلك على أوضح ما يكون في هذه المرحلة من تاريخنا القومي، حيث نسعى لامتلاك وعينا بأنفسنا، ولإحياءِ ثقافتنا الإنسانية العظيمة. فإذا كانَ هنالك تناقضٌ بين الغاية والوسيلة اليها، فهو على نحو أو آخر من مسؤولية القائمين على الإعلام، وهو قُصورٌ منهم عن آستيعاب مُعطيات الثقافة أو تقصيرٌ في تَجْليتها وتبيانِ عناصرها.

إنّ الإعلام مرتبط - بالضرورة - بالهدف الذي جُعِلَ له. وقد كان ابتعاثُ النبي محمّدٍ رُسُلَه الى ملوكِ الأرض يدعوهم الى الإسلام هو أول عملٍ اعلامي ذي طابع عالمي في تاريخنا. ولسنا نرى الإعلام اليومَ مغادراً هذه الدائرة التي رسمها الرسول، فهو في واقعه الملموس، سواء أكان معنا أم ضدنا دعوةٌ الى ثقافة ما، أو إلى اسلوب حياة معين، ولعلَّ جعفَر بن أبي طالب أنْ يكونَ من أوائل الاعلاميين العرب حين وقف بين يدي النجاشي ملك الحبشة قائلا:

«أيها الملك، كنا قوما على الشرك، نعبد الاوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، يستحلُّ المحارمَ بعضُنا من بعضٍ في سفكِ الدماء وغيرِها، ولا نُحِلُّ شيئا ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيّاً من أنفسنا نعرفُ وفاءه وصدقَه وأمانته، فدعانا الى أن نعبدَ اللهَ وحدَه لا شريكَ له، ونصِلَ الأرحام ونحميَ الجوار ونصلّيَ لله عز وجل، ونصومَ له، ولا نَعبُدَ غيرَه»[1].

فجعفرُ يُظْهِرُ النجاشيَّ على الإسلام بما هو أسلوبُ حياةٍ متميّزٍ، في مُقابلِ الوثنيةِ والسّفَهِ الجاهليِّ، وما آلت الحضارات اليه آنذاك من انهيار. وقد أدرك النجاشيُّ هذا التَميُّزَ آبتداءً حين سأل جعفراً قبل ذلك قائلاً: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم.. ولم تدخلوا يهوديةً ولا نصرانية؟ كما أكّدته روايةٌ أخرى - لما قاله جعفر - أكثرُ تفصيلاً جاء فيها: «فدعانا الى الله لنوحّدَهُ ونَعْبُدَه، ونخلعَ ما كُنّا نعبدُ وآباؤنا من دونِهِ من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأدَاءِ الأمانة، وصلةِ الأرحامِ وحُسنِ الجِوارِ، والكفِّ عن المَحارِمِ والدّماءِ. ونهانا عن الفواحشِ وقولِ الزورِ، وأكلِ مالِ اليتيمِ، وقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وأمرنا أن نعبدَ اللهَ ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاةِ والزّكاة والصيام»[2]. وأحسبُ أن من تحصيل الحاصل أن نقول هنا إنّ القرآن الكريم هو «إعلامٌ» للخلْقِ جميعاً بالمعنى الذي ذهبنا اليه آنفا، وانه يدعو الى قيام اسلوبِ حياةٍ تتحقّقُ من خلالِهِ كرامةُ الإنسان، والى بناءِ ثقافة مُزدانةٍ بِمَا كرّمَ اللهُ به الإنسانَ من حريةٍ وإرادةٍ وعقل، وتلكم هي الأمانةُ التي ذكر الله أنها عُرضت على السماوات والأرض والجبال فـأبَيْنَ أن يحمِلْنهَـا وحَمَلهـا الانسان. ولقد ظلّت الثقافة القرآنية مهيمنةً ما بقي العربُ أقوياءَ، وأتاحت لأجيالٍ متتابعةٍ من البشر أن يتفيأوا ظلالها وأن ينعموا بخيراتها وأن يحيوا فرحها العظيم وأيامها

المجيدة. فلما أن دارت الدائرة على العرب وضَعُفُوا واستكانوا، أطبقت الثقافة الغربية عليهم. واتخذت لها مواقعَ في ديارهم، ثم كان ما كانَ عنْ تباعُدِ الشقَّةِ بينهم وبين أصولهم ومصادرهم، ومن ضعف الاجتهاد لديهم، وسيادة التخلف والجهل، وتقليدهم للغربيين في المعاش والتفكير والذوق، وفِقْدَانِهم للحسّ النقدي الذي يَمِيزُ الخبيثَ من الطيب، ويُظْهِرُ على أصول الاتجاهات والأفكار والمواقف والآراء والمسلكيات ثم يقيسه بموازين الثقافة القومية، ويحُولُ بينها وبين أن تكون سبباً في التبعيّة والاستلاب، وسيطرةِ من يريدونهم أُجَرَاءَ أذِلاّءَ مسخّرين...

إنّ المغلوبَ مُولَعٌ أبداً بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون، ولا مناص والحالة هذه من رؤية المهمة الإعلامية في ضوء مُقتضيات النهوض القومي، حيث يجد الاعلاميون أنفسَهم في مواجهة قضيتين متلازمتين أو قضيّةٍ واحدةٍ ذات وجهين، فهم مدعوون الى إضَاءَةِ جوانبِ الثّقافةِ القوميّةِ واحيائها وتقديمها الى شعوبهم من جهة، والى أن يدرأوا عنْها الثقافةَ الغازيةَ وأنماطَها المسلكيّة من جهةٍ أخرى. وإنَّ مِمّا يجعلُ العبءَ أكبر وأجدرَ بكاملِ الاحتشاد أنّ ثقافتَنا العربيّة موسوعية الطابع، متعددُة المناحي، وفيرةُ المراجع، عميقة الجذور، وما زالَ كثيرٌ من معارفها مخطوطاً لم يحقّقْ بعد، وأن ثقافاتِ الانسانيّةِ كلّها تكاد تتخلىٰ عن ذواتِها وتستسلمُ الى أنموذجٍ واحد من الثقافة يحاول أن يسود العالم، مُسَلّحاً بوسائلِ اتّصالٍ ذات مستوى تَقَنِيٍّ عالٍ لم تعهَدُه البشرية من قبل.

ويتصل بالشِقِّ الأوّلِ من هذه المعادلةِ ما نراه من ضرورة أن يقدِّم الاعلامُ جوانبَ بعينِها من تراثنا العربي، وهي الجوانبُ التي تكمنُ فيها قِيَمُ الحريّةِ والعقلِ والجهاد، وأن يُنْظَرَ الى هذَا التراث بصفةِ كونهِ قوةً فاعلةً مُوَثِّبةً تسري في صميمِ حركةِ العصر، لا على أنّه مُتْحَفٌ وَطنيٌّ نفاخرُ به ولا نتجاوزُ ذلك. وهو درس نأخذه من شعبنا العربي نفسِه، اذ أن هذا الشعبَ العظيمَ لا ينظرُ الى تراثِهِ من زاويةٍ معرفيّة تجريدية، ولكنه يحياهُ، ويفترض حضورَه الدائمَ في وجدانه، فهو رصيدُه المَذْخورُ لأيامِهِ الصعبة، وهو حِكمتُهُ وصبرُهُ ويقينُهُ، وهو آخرَ الأمرِ نهوضُه الكبيرُ وغَضَبُهُ القُدُسيُّ العاصِف...

نحن لا ننكر أن أمّة في ضعف أمتنا وتمزقها وهوانها لن تستطيع أن ترسم لنفسها، مجتمعة او متفرقة، سياساتٍ اعلاميةً تنهض بواجباتها على الوجه المطلوب، كما لا ننكر أن كثيرا من سياساتنا الاعلامية يكاد يكون مفروضا او مرسوما جاهزا مستوردا، وأنْ أيَّ أمل في وضع الأمور في نصابها مرهونٌ بقيام دولةٍ عربية قوية قادرةٍ على أن تستردّ لنا هُويتنا الحضارية وتقينا غوائل التغريب. بيد أننا، على الرغم من ذلك نستطيع، وفي حدود ما يمكن تحقيقه، إيجابا وسلباً، أن نحدّدَ أدواءَنا ونكشف عيوبنا أولا، وأن نُحبط الهجمةَ الإعلاميّةَ الغربية علينا ثانيا. وليس يخفى أن الأنموذج الثقافي الأمريكي هو أسلوب الحياة الأكثرُ خطراً على عالمنا العربي، وأن مقاومتنا له لونٌ من الدفاع المشروع عن النفس. كما لا يخفى في الوقت نفسه أن لليهودية سيطرة كبيرةً على وسائل الاعلام العالمية، وأنها تموّلُ أو تشارك في تمويل أغلبِ محطّاتِ الاذاعة والتلفزيون والمؤسسات الصحفية وركالات الأنباء في أمريكا وأوروبا وأجزاء أخرى من العالم، وأنها تروّجُ لأكثر المذاهب ضلالا وأكثر الاخلاقِ خِسّةً وهبوطا، تريدُ بذلك أن تُلْحِقَ أممَ الأرض بعضِها ببعضٍ في دَرْكٍ سحيق وحَمْأةٍ مُنْتِنَةٍ، لِتَظَلَّ هي الأمّةَ ذاتَ النفوذ، وليتحقق لها ما تتوهّمُهُ من معنى الشعب المختار.

ان هذا كلّه واضحٌ في تعاليم التّلْمود، وفي بروتوكولاتِ حكماء صهيون، وفي الممارسات الاسرائيلية في فلسطين، وليس عجباً أن يلتقي الصهاينة والأمريكان على أرضٍ سواءٍ في الترويج لهذا الأنموذج الثقافي، وفي تغليبِ روحِ الغرب الأمريكي على الشعوب، ففي هذا الانموذج من السّفَهِ والغرور ومجانبةِ العقل والوحشيةِ ما يشفعُ لجنودِ يهوةَ ما يقومون به من مَذَابِحَ وموبقات، وأقرب شاهد على ذلك هو تطابق أساليب الامريكان واليهود في تعاملها مع الهنود الحمر ومع الفلسطينيين، والتوافق الأكثرُ إيغالاً في صميم التركيبة النفسية لهذا الأنموذج بين نظرة اليهود الى الآخرين على أنهم حيوانات ونظرة الأمريكان الى الآخرين على أنهم هنود حمر. ولا نستبعد في المدى المنظور أن تنصهر هاتان النظرتان في بوتقة واحدة تهدد الحضارة الانسانية كلّها بالفناء.

وهكذا، فان مما يُمْكِنُ الخلوصُ إليه أنّ على الاعلاميين العرب أن يحوُلوا دون سيطرة هذا الأنموذجِ على شَعْبِهِمْ، وعلى الأخصّ في جوانبه الأخلاقية حيث يكمن الخطر، وحيث يمكن ان يعتري الوَهَنُ مواطنَ الإعتقادِ في النّفْس العربية التي ما زال لثقافتها الأصيلة بصماتٌ بارزة عليها. ومما يزيد في تغليبِ هذا الجانب من المهمة الاعلامية ان الدائرة الاعتقاديّةَ لدى الإنسان العربي تظل متماسكة طالما كانت الدائرة الاخلاقية المحيطة بها قويةً مترابطة الحَلَقات. أما اذا تخلخلت هذه أو سقطت بعضُ حلقاتها، فان النفاذَ منها الى أصْلِ الاعتقادِ سوف يكون ممكنا، وقد يتهيّأ

حينئذٍ حَرْفُ هذا الاعتقادِ عن نَسَقِهِ الحضاريّ، ويبدأُ التسليمُ لنَمَطٍ حضاريّ مُغايرٍ أو أسلوبِ حياةٍ آخر، واذا كانت الاخلاق ضمانَ الفكرِ الأوّل كما يرى المفكر الجزائري مالك بن نبي[٣] فان أيّ نزول بها، كيفما كانت سُبُله وطرائقُه، سوف يَنْزِل بما وراءَها من ذلك الفكر، وذلك أول السقوط...

أمّا أهمُّ ملامح هذا الأنموذج الذي يتحيّفُنا من كلّ جانب، ويأتينا مع الكتاب والصحيفة والفيلم السينمائي وأفلام التلفزيون والفيديو فهي:

أولا: الغلو في اللامنطقية، والغاء العقل في فهم الأشياء والعلاقات والأحداث، ويتمثلُ ذلك في مَجموعةِ أفلامِ «الرجل الآلي» و«المرأة الآلية» و«المرأة العجيبة» و«العملاق الأخضر العجيب» التي يشاهدها أطفالنا ويؤخذون بما فيها من أعاجيب، ويقلدون أبطالها في الحركة والتصرف، كما يتمثل أيضا فيما يُنشر من تحقيقات صحفية وكُتبٍ حول الصحون الطائرة وكائنات الفضاء وما شابه ذلك.

ثانيا: تمجيدُ المغامرة الفردية والشعور **بالعظمة الذاتية**، وقتل الاحساس بالجماعة كما نرى في مسلسلات «مانيكس» و«هواي» و«كوجاك» وما شابهها.

ثالثا: النزولُ بالمرأة عن مستواها الانساني، وجعلها سلعة يُساوَمُ عليها، واقترانُها بلَذّاتِ ونَزَواتِ الرجال، كما نرى في مسلسل «دالاس» الذي تبثه معظم الأقطار العربية ومسلسل «ملائكة شارلي» والانحراف بالأسرة عن غاياتها وأهدافها الاجتماعية، كما نرى في مسلسلي «هارت وزوجته» و«ثمانية تكفي».

رابعا: الترويج للعنف والوحشية والقتل والنزق والطيش كما في معظم افلام الغرب الأمريكي التي تغمر أسواقنا تباعا..

ولا تنتهي سلبيات هذا الأنموذج عن هذا الحد، فهي تحتاج الى بحث مستقل مستفيض، ولكن مما نلاحظه أن الفرص غير متكافئة في وسائلنا الاعلامية بين أسلوب حياتنا العربية الأصيل، وهذا الاسلوب الهابط المعزز بوسائل شتى. كما أن الفرص غير متكافئة بين حملة التراث العربي الاسلامي، وحملة الأفكار الغربية بوجه عام. ولسنا نغالي اذا ما قلنا إن وسائلَ الاعلام الغربية تَشُنُّ هجوما شاملا على الإنسان العربي، طفلا، ويافعا، وشابا، وكهلا.... رجلا وامرأة. وتُعِدُّ العُدّة لصياغته وفق هذا الأنموذج. وهو أمر وقعنا في شراكه. ولم نجد بيننا من ينتبه الى أوجهه المتعددة ويراها في سلك واحد. في حين ان الفرنسيين، وهم قلب أوروبا، أضحوا يخشون هذا الأنموذج ويرونه خطرا ماثلا يوشك أن يعصف بميراثهم الحضاري- على قرب المصادر والموارد-، فقد نادى وزير الثقافة الفرنسي في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي عقد في أواخر عام ١٩٨٢م في المكسيك «بحرب مقدسة ضد أنماط التفكير وأساليب الحياة التي تغمر بها الامبريالية المالية والفكرية عالمنا المعاصر»[٤]. وما زلنا نسمع بين الحين والحين دعوات مثيلة تحذر من الطوفان الأمريكي الذي سيذهب بحضارة الانسان ويلغي مكتسباته الروحية والفكرية والأخلاقية التي كافح من أجلها عبر العصور. ولسنا نهدم مواقف شبيهة لدى الأديب الفرنسي الراحل اندريه مالرو ولدى وزيرة الثقافة اليونانية ميلينا ميركوري وغيرهما من أحرار الغربيين.

فاذا كان الغربيون انفسهم قد أدركوا خطورة هذا الأنموذج الأمريكي، وراحوا ينعوْن على مجتمعاتهم تسليمها المطلق له، وانبهارها به، وتعويلها عليه دون ما ورثته من اعراف وتحدر اليها من اخلاق، فما الذي يمكن أن نقوله نحن العرب، والشُقّةُ بعيدةٌ جدا بين ما نريده لأنفسنا وبين ما يُراد لنا، والخُلْفُ كبيرٌ بين ديننا وأخلاقنا وأعرافنا وبين ما يرسمه أصحاب هذا الأنموذج من خلف البحار؟

ان القول بصعوبة مواجهة هذا المد الثقافي لارتباطه بالتكنولوجيا التي تعوزنا، ولأن هذه لا بُدَّ أن تحمل معها ثقافةَ مَنْشَئِها هو حُجَّةٌ داحضة ومغالَطَةٌ منطقيّة ورَبْطٌ اعتناقيٌّ بين الأمور، وإلاّ فما بالُ أُمَمٍ معاصِرَةٍ كالصين واليابان قد استطاعت أن تمتلك زمام التحديث دون أن يكون ضربةَ لازمٍ عليها أن تستورد القيم مع قطعِ الغيار؟

أيكون ذلك شيئا فوق التصور حين ندخل به حدودَ هذا الوطن العربي الذي يمورُ بالمنظّرين والمخطّطين وراسمي الأحلام؟

ان في التاريخ شواهدَ كثيرةً على بُطلان دعوى الذوبان هذه، وحسبُنا من ذلك ما كان من الأوروبيين في العصور الوسطى، حين أخذوا علوم العرب ولم يعتنقوا دينهم، وما كان من اليونان الأقدمين حين أخذوا علوم المصريين والفنيقيين والأشوريين وردُّوا دياناتِهم وأعرافَهم وان هذا ليحملنا على الاعتقاد بأن لكل مجموعةٍ حضاريةٍ نسقاً قِيميّاً مُتميزاً. لا يُستبدل أو يُغيرُ لأدنى التفاتةٍ هنا أو هناك، بل تُقَيّمُ في ضَوْئه الأمورُ، فيؤخَذُ منها ما يشاكِلُهُ أو ينفعه لا

ما يُلغيه ويجعله أثراً بعد عين...

لقد كان الوزيرُ الفرنسي وهو يهاجم النَمَط الأمريكي في الثقافة والحياة يمارِسُ لوناً من النقد الذاتي يجده الغرب ضرورياً لمجموعته الحضارية. أما نحن، عربا ومسلمين، فغايتنا أبعدُ من ذلك، وحاجتنا اكثرُ الحاحاً، إذ لا بد من أن نكون قادرين على الخروج من هذه التبعيّة النفسية، وعلى الخلوص الى صعيد ثابت، نرى فيه أنفسنا وتاريخنا، وما لنا، وما علينا.

ومهما يكن من عِظَمِ الخطب وثِقَلِ المسؤولية، فإننا لا نتحدث على المستحيلات، ولكننا ننظر في الامكان، وفي السُبُل الكفيلة بوضع خطة عربية شاملة نستنهض بها ثقافتنا القومية وندرأُ عنها ما يحاك لها ولنا في رَأْدِ الضُّحى.

ولما كُنّا جميعاً من حملة الاقلام، ولا نستطيع أن نحمِلَ السياسيين العربَ على تبنّي مثلِ هذه الخُطّة، لأسباب نمسك عن الخوض بها في هذا المقام، فان قُصارانا لا يَعْدُو وإقناعَ هؤلاء بجعل الثقافة خارجَ أُطُرِ النّزاعِ السياسي، وبالسماحِ لَنَا بالعَمَل المُوَحّدِ في حدودِ الأُسس والمنطلقات التي لا نَخْتلف عليها، وهي وفيرةٌ فيما اعتقد، وذاتُ حضورٍ غالِبٍ في ديارنا العربيّة كافة.

إنّنا لا نملك القرار السياسي، ولا نستطيعه، ولكننا نملك أن نجعله أقربَ ما يكون الى قرارِنا الثقافي واختيارنا الحضاري وإرادتنا القومية.. وذلك مجالنا الرحيب.

ابراهيم العجلوني
رابطة الكتاب الأردنيين

الهوامش

(١) السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، ج٢، ص (٢٠)، دار المعرفة بيروت.

(٢) المصدر السابق، ص (٢٠)، ص (٢١).

(٣) انظر، مشكلة الثقافة لمالك بن نبي، دار الفكر، بيروت، ترجمة عبدالصبور شاهين.

(٤) أنظر: في سبيل ثقافة عربية ذاتية، د. عبدالله عبدالدايم دار الآداب، بيروت ١٩٨٣ ص (٣٤).

دار الاداب تقدم
الدراما التجريبية
في مصر
والتأثير الغربي عليها
الدكتورة حياة جاسم محمد